الملك الظاهر بيبرس

ـ ٣ ـ

وفوجئ بيبرس وهو في مصر بأمر لم يكن في الحسبان : ذلك أن فقراء الصوفية هاجوا على شيخه الشيخ خضر . ومن مواضع العجب ان يستسلم عقل بيبرس الجبار الى هذا الشيخ وأباطيله . وما ذاك إلاّ لأنه كان بشره بالملك فناله فعدّ بيبرس هذا الاتفاق كرامة للشيخ فأسلمه قياده . وشدّ ما كان لأمثال هذا الاتفاق من أثرٍ مسيء في تاريخ الاسلام وفي عقلية المسلمين . فبنى له زاوية وكان يستشيره ويطلعه على أسراره . ويستصحبه في أسفاره . وقد عناه ابن رضوان بقوله في مدحةٍ للملك الظاهر :

(لما رأينا الخضر يقدم جيشه أبداً علمنا أنه الاسكندر)

وكان يخبره بالمغيبات فتقع كما قال . وسمى أحد أولاده خضراً تفاؤلاً باسمه فكبرت نفس الشيخ خضر . وامتدت أصابعه الى اللعب في المملكة . وتعدّى طوره الى ما فيه إخلال بالأمن فتعرّض للمعابد غير الاسلامية . يتصرف فيها برأيه : ففي دمشق استولى على كنيسة اليهود . وعمل فيها سماعاً للصوفية . ومدّ لهم بساطاً . لكن هؤلاء الصوفية أنفسهم عادوا فثاروا عليه وأنكروا من اعماله ما لا يسوّغه عقل ولا يصدر مثله من مسلم . فاستدعاه السلطان وجمع بينه وبينهم . ولما علم صدق مقالهم استشار الأمراء فيه فأشار بعضهم بقتله . وبعضهم بحبسه . وشعر الشيخ خضر بميل السلطان الى الرأي الأول فقال له : (إن أجلي منوط بأجلك فإن قتلتني لحقتني) فخاف الملك وحبسه وذلك (سنة ٦٧١ هـ) وبعد خمس سنوات توفي الشيخ خضر فبلغ الملك وفاته وكان في دمشق فاضطرب ومرض ومات بعد أيام كما يأتي . وقبر الشيخ خضر معروف الى اليوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

باسم (زاوية سيدي خضر) بشارع راس التين في الاسكندرية [1] .

واتفق ان هدم بيبرس احد قصور الفاطميين فوجد فيه امرأة في صندوق وقد نُقش عليه اسم الظاهر وصفته . وهذا بالطبع يسرّه ويُعلي من شأنه . والصندوق قد يكون هيأه من قبل تمخرقٌ كالشيخ خضر أو أنه فرعوني قديم وقد كتب عليه كلمة هيرو غليفية فحرفوها الى بيبرس .

واحتفل بزفاف ابنه الملك السعيد فرسم أن تجتمع العساكر في (قره ميدان) تحت القلعة فبقوا خمسة أيام وهم في مهرجان او عيد يمثلون معارك حربية وفصولاً هزلية . والناس من حولهم يلهون ويلعبون وخلع على رجال الدولة نحو الف وثلاثمائة خلعة . وأرسل مثلها الى دمشق . ومُدّت الأسمطة وحضرها رسل الافرنج والتتار . والملكُ جالسٌ على تختٍ من آبنوس مذهب أنفق عليه الف دينار وقدّم الامراء الهدايا حسب العادة فلم يقبل من كلٍ منهم سوى ثوب واحد جبراً لخاطره . قالوا (ولم تُمكّن واحدة من نساء الأمراء على الأطلاق من الدخول) ولم أفهم معنى هذا .

وبعد ذلك شخص الملك الى دمشق وهي سفرته الأخيرة . ومنها الى حلب فأقام في قرية (حيلان) ذات العين الفوّارة . ونهض منها فالتقى بالتتار وحلفائهم من بني سلجوق على نهر جيحان فكانت معركةً حامية الوطيس (وكان الملك يكرّ على العدو كالأسد الضاري ويقتحم الأهوال بنفسه ويشجع أصحابه ويطيب لهم الموت في الجهاد الى أن انزل الله نصره) وانكسر التتار اقبح كسرة .

---

(١) وقصة الشيخ خضر مع بيبرس صورة مكبرة لقصة الشيخ سليمان مع بربر . وذلك ان مصطفى آغا بربر الذي استبد بحكم طرابلس الشام قبيل دخول المصريين إلى سوريا كان يعتقد بولاية شيخ اسمه الشيخ سليمان وقد أسكنه معه في قلعة طرابلس وكان هذا الشيخ يقول لبربر أبشر يا أقرع إنك لا تموت إلا على فراشك . وكان لا يخرج من القلعة أصلاً وبربر من عامة الناس لكنه أعرف الناس بطبيعة الناس فأصدر فرماناً بحبس الشيخ سليمان في القلعة وعدم خروجه منها مدة حياته فغضب الشيخ سليمان على بربر وما زال به حتى نقض حكمه عليه واسترد حريته وجعل يخرج من القلعة الى حيث شاء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقُتل من قُوادهم جماعةٌ كما استشهد من امراء بيبرس طائفة وأسر من كبار السلجوقيين طائفة . وهرب وزيرهم الأكبر المسمى (برواناه) الى عاصمتهم (قيصرية) فأخبر سلطانه (غياث الدين) بما جرى فهرب الى توقات . وقامت الشعراء تهنئ بيبرس وتتغنى بذكر بطولته وبطولة أمرائه . ولحق الملك بالمنهزمين الى (قيصرية) فمر بقرية أهل الكهف وهي (أفسس) الى ان دخل قيصرية ومشى اهلها بين يديه . وجلس على عرش ملوكها السلاجقة . وخُطب فيها باسمه وهادَن أولاد (قَرَمان) . وهم أُمراء كان لهم شان في ذلك الزمان والمكان . وعاد فمر بمكان المعركة فقيل له ان عدة من قتل من المغول وحدهم (٦٧٧٠) نفساً .

وعاد الى دمشق في ٧ محرم سنة ٦٦٧ ونزل بقصره الأبلق في المرجة . وقد بلغه ان التتار يتجهزون للكرَّة عليه فأوجس خيفة لأنه شعر بوعكةٍ وتعب . ثم بلغه ان ملك التتار عاد الى بلاده منهزماً فكان ذلك من لطف الله به : إذ أن وعكته استمرَّت ثمانية عشر يوماً على أثر إكثاره من شرب القِمِزّ الذي وصفناه في اول المحاضرة وقلنا إن (بيبرس) كان مولعاً به لأنه الشراب الوطني لقومه . شعر بيبرس في أول الأمر بحرارة في جوفه فوُصف له مقيء ثم مُسهل ثم مسهل آخر أشدُّ من الأول أعقبه نزيف ثم اشتدت حُمّاه . وضعفت قُواه . وهكذ اسلم روحه الى الله .

وذكر بعض المؤرخين لموته أسباباً ربما كان في بعضها بعضُ الصحة : ذلك ان القمر كسف كسوفاً كليًا وأظلمت الدنيا على أثره . فتأوَّلوه بموت رجل عظيم فخشي الظاهر ان يكون هو ذلك العظيم . فرأى أن يَفدي نفسه بالملك القاهر الذي كان من عظماء مملكته . وهو ابن المعظَّم عيسى بن الملك العادل (جارنا الأدنى) وكان بيبرس يحسد القاهر هذا على بطولته . وعلى لهج الناس بالثناء عليه . ويقال إن القاهر عاب الملك الظاهر في بعض ما كان منه في حرب التتار . كل ذلك حمله على الفتك به . فيتخلص من منافسته له أولاً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويكون فدية عنه ثانياً . فدس له سماً في هناب [1] شراب القمز (والهناب قدح الشراب الضخم) وقام القاهر من المجلس الى فراشه ومن فراشه تواً إلى قبره . وغلط الساقي فسقى الظاهر بالهناب المسموم الذي شرب به القاهر ونسي ان يغسله من أثر السم . فكان ذلك هو السبب في موته . وقد عد قتله للقاهر من أقبح المآثم التي كان ينبغي أن يتورع بيبرس عنها .

وكانت وفاته في ١٤ محرم سنة ٦٧٦ وعمره احدى وخمسون سنة ومدة ملكه ثماني عشرة سنة . فكتم الأمراء خبر موته عن الناس ونقلوه سراً من القصر [2] الأبلق الى قلعة دمشق . فحنطوه وعلقوا تابوته في غرفة من غرفهم . وكتبوا إلى ابنه الملك السعيد باالخبر . واستأذنوه في مكان دفنه . لأن الظاهر أوصى ان يدفنوه على طريق (داريا) في مكان قريب منها . فلم يرض ابنه إلا أن يدفن داخل سور دمشق . فابتاعوا دار العقيقي الواقعة أمام مدرستنا هذه بستين الف درهم فهدمت وبنيت مدرسة للشافعية . ودفن الظاهر في زاويتها الجنوبية . وفي الزاوية الشمالية حمام ما زال يعرف بحمام العقيقي الى اليوم .

---

(١) لفظ هناب من الألفاظ الصليبية الدخيلة اقتبسه المسلمون في أثناء الحروب الصليبية من الألمانيين واسمه في لغتهم (hnap) .

(٢) القصر الأبلق هذا ويسمى الجوسق أيضاً ، والجوسق كلمة تركية عربها العرب من كلمة كوشك) بناه الظاهر في مرجة دمشق بالحجر الأسود والأصفر ولذا سمي الأبلق وهو (يشتمل على قاعات مفروشة بالرخام الملون المفصل بالصدف والفص المذهب وله رفارف تباغي السحب وتشرف على المدينة والغوطة ، وقد كتب على أسكفته انه (عمل ابراهيم بن غنائم سنة ٦٦٨) وهو المهندس المصري المشهور الذي بنى المدرسة الظاهرية حيث مدفن الملك الظاهر وابنه الملك السعيد وعلى زاوية أسكفتها العليا كتبت العبارة المذكورة نفسها (عمل ابرهيم ابن غنائم) وبقي القصر الأبلق حتى هدمه تيمورلنك سنة ٨٠٣ ولبث منهدماً حتى بنى السلطان سليمان العثماني تكيته من أنقاضه سنة ٩٧٦ هـ وكان على واجهته مئة أسد منزلة صورها بالحجر الأسود في الأبيض وهناك أخرى بالحجر الأبيض في الأسود . وصورة الأسد هي (رنك) الملك بيبرس أي شعاره الخاص وما زال هذا الشعار الظاهري منقوشاً على بعض أحجار التكية السليمانية وبارزاً لعين من يراه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واشتهرت المدرسة باسم المدرسة الظاهرية وكان نقل جثمانه اليها في ٥ رجب فيكون قد بقي في تابوته معلقاً في القلعة ستة أشهر إلا أياماً .

***

هذا ما استطعنا ان نلخصه من أخبار جارنا الملك الظاهر . وقد اتفقت كلمة المؤرخين على أنه اعظم السلاطين الذين ملكوا مصر والشام بعد صلاح الدين . ويجيء بعده المنصور قلاوون . وهؤلاء الثلاثة لهم الفضل الأكبر في جلاء الصليبيين عن الديار الشامية وكانت مراكزهم الكبرى (القدس) و (انطاكية) و (طرابلس) : صلاح الدين أخرجهم من القدس . والظاهر من انطاكية . وقلاوون من طرابلس .

قال الذهبي (وكان الظاهر خليقاً بالملك لولا ما كان فيه من الظلم) وقديماً قالوا : لا يقوم الحق الا على شعبة من الباطل . ولم يقم فاتح من كبار الفاتحين ويستتب له سلطان من دون ان يرتكب شيئاً من الظلم والعدوان . من ذلك ما ذكرنا من اغتيال الظاهر للمعظم توران شاه ابن الصالح ايوب . ثم اغتياله الملك قُطز . ثم المغيث ملك الكرك وهو من سلالة بني أيوب . ويُروى ان السبب في قتل الأخير تعرضه بالسوء لامرأة الظاهر مذ كانت في الكرك . وأخيراً قتل بيبرس الملك القاهر دساً بالسم .

وأفظع من هذا كله قتله الفي أسير من الصليبيين بعد أن أمّنهم (كرمون التتارى) وهم يظنونه بيبرس كما ذكرنا في فتح صفد فأشبه بيبرس في فعلته هذه (نابوليون بونابرت) الذي قتل الفي أسير مسلم في يافا بعد رجوعه خائباً من عكا . وقد عاب المؤرخون عليهما فعلهما غير أن بعضهم التمس لهما عذراً بأن أسرى صفد وأسرى يافا نقضا عهد النابوليونَيْن ولم يطبقوا شروط الصلح التي اتفقوا عليها .

وللظاهر مشابه أخرى بنابوليون . ومنها النبوغ في فن الحرب وقلقلة الركاب في أطراف البلاد ونشاط الحركة في الكرّ والفرّ . وكان الظاهر يباشر الحروب بنفسه ويشارك جنوده في هدم الأسوار أحياناً ويعتني بالمرضى والجرحى معهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان مشتغلاً بهدم سور قيسارية يوماً فورد اليه كتاب من أُمرائه يشكون له ما لاقوا من أسوار (البيرة) فكتب اليهم (إنا بحمد الله ما خُصصنا عنكم براحة ولا دَعة . ولا انتم في ضيق ونحن في سعة . ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليلَ والنهار . وناقلُ الأحجار ومرابطُ الكفار . وقد تساوينا في هذه الأُمور . وما ثَمَّ ما تضيق به الصدور) فهو كنابليون يتألف رجاله وينصفهم من نفسه ويحملهم على التأسي به . وأرسل الرسل مرةً الى (بيموند) صاحب طرابلس ورافقهم في زي خادم كي يتعرف خبايا البلد ويدرس طرق الاستيلاء عليها .

ونقض ملك الروم عهده فاستقدم اليه أساقفة مصر وسألهم عن حكم نقض العهد في دينهم فقالوا حرام . ومن فعله يُحرَم من دينه وكتبوا ذلك في كتاب فألف بيبرس بعثةً اكليركية من راهب وأُسقُف وقسيس وارسلهم الى القسطنطينية يبلغون الملك قرار الحرمان . لكن الملك البزانسي ارعوى عن غيّه واسترضى الظاهر وجدد له بناء جامع القسطنطينية الذي بناه الأمويون في صدر الاسلام فأرسل الظاهر الى الجامع السجاجيد والمباخر وقناديل الذهب .

وقد ظهر لنا من تضاعيف أخبار بيبرس أنه لم تكن له أنسة ولا اهتمام بالموسيقى والشعر والشعراء . ولا بمجالس الأدب . ومحافل الطرب : فان السياسة وحبَّ الفتح والنكاية في العدو وعمرانَ البلاد وتشييد المباني والآثار — كلُّ ذلك شغله عما سواه . نعم كان يُعني بنشر العلوم الاسلامية على اختلاف ضروبها فقد بنى لها المدارس وعيَّن لها الفقهاء . وأعاد الجامع الأزهر إلى ما كان عليه في العهد الفاطمي بعد ان خَمَل شأنه في العهد الصلاحي . ولم يكن له شعراء ومغنون يُحيون مجالسه ويعيشون بجوائزه . كما كان لغيره من الملوك وهذا لعمري من محامده . وغرّ مناقبه : فإن حراسة البلاد والقيام بأعباء الملك جدير أن يشغل صاحب الملك عن اللهو وصنوف الدَعة والرفه . ويدلك على شدة اهتمامه بحراسة البلاد الاسلامية قوله لبعض امرائه وقد اشار الأمير عليه بملاينة التتار فانتهره بيبرس صائحاً : (أنتم سببُ هلاك المسلمين) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكل ما في الأمر انه اصطفى لرئاسة ديوان انشائه أديباً من الكتاب (وهو محي الدين بن عبد الظاهر) فكان ينظم احياناً الشعر مهنئاً له ، وواصفاً أعماله ، من ذلك أن الملك بيبرس حاصر عكا فلم ينَل منها ، ورجع الى عكار فنتحها فقال محي الدين :

يا مليك الأرض بُشرا ك فقد نلت السعادة
إنّ عكار لعمري هي عكا وزيادة

ولما أوقع الملك بالتتار على شاطئ الفرات هنأه كاتبه بقصيدة عارض فيها قصيدة ابن هاني الأندلسي في المعزّ الفاطمي التي أولها :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

فقال محي الدين :

سِرْ حيث شئت لك المهيمن جار واحكم فطوع مُرادك الأقدار

ومنها وهو معنى أظنه مبتكراً :

رَشَّتْ دماؤهم الصعيد فلم يَثرْ منه على الجيش السعيد غُبار

ولو قال (بلّت) مكان (رشت) لكان أجود .

ومما يدل على ان بيبرس ما كان يحفِل بكل ما يسمونه أدباً وأدباء وشعراً وشعراء — مجافاته لمؤرخ الأدباء والشعراء القاضي ابن خلكان فقد عَزَله من قضاء دمشق بعد ان قام به مدة عشر سنين . وكأن المؤرخ ابن خلكان اراد ان ينتقم منه فلم يذكر له ترجمةً في تاريخه كما ترجم لغيره من الملوك ممن لا يقاس به ولم يَفُرِ فَرِيَّه .

ومن شعراء عصره السِراج الورّاق وابو الحسين الجزّار وابن الخشاب ، ولم يكن لهم فيه مدح يذكر ، وشعر يؤثر ، ولم ينقل عنه أنه اجازهم بالأموال والبِدَر ، وكانوا اذا نظموا فيه قالوا شعراً متكلّفاً ، وسلكوا في مدحه طريقاً متعسفاً : من ذلك ما قالوه في مدرسته التي بناها في القاهرة ويقال انه بناها بحصته من غنائم انطاكية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال السراج :

مليك له في العلم حبٌّ وأهله فلله حبٌّ ليس فيه ملام

وقال الجزّار :

ألا هكذا يبني المدارس من بنى ومن يتغالى في الثواب وفي الثنا

وقال ابن الخشاب :

قصد الملوك حماك والخلفاء فافخر بأن محلك الجوزاء

الى آخر القصائد وهي ليست مما اعتاد ان يقوله أمثال هؤلاء الشعراء في امثال ملك عظيم كالملك الظاهر وما كانوا ليقولوا هذا فيه لو اكثر لهم اللُّهى . إذ لا يخفى ان اللُّهى تفتح اللَّها ولم يكن هذا بخلاً منه فقد مرَّ انه كان يمنح رجاله الأموال الطائلة لكنه مشي في معاملة الشعراء على اثر عمر بن عبد العزيز

وكان الظاهر يحب التاريخ ويقول (سماع التاريخ اعظم من التجاريب) وكان يطرب لصناعة الانشاء ويسرّه ان تحبَّر الرسائل في مخاشنة الأعداء من ذلك ان الملك الظاهر كان حاول فتح طرابلس وتدميرها على رأس صاحبها البرنس (بيموند) . فلم يتيسر له ذلك فتركه وصمَد الى انطاكية وكانت انطاكية داخلةً في حوزة بيموند ففتحها بيبرس وقتل اربعين الفاً من أهلها بعد ان لم يتيسر فتحها لصلاح الدين . وعاد الى دمشق وأقيمت المهرجانات في قلعتها احتفالاً بالعيد وبافتتاح انطاكية وأرسل منها الى (بيموند) كتاباً يخبره بما وقع من الاستيلاء عليها . والكتاب من انشاء رئيس ديوانه وقد ساق خبر الفتح مساق البشارة لبيموند ولكنها على حد قوله تعالى : « فبشرهم بعذاب اليم » والكتاب طويل مذكور في صبح الأعشى (جزء ٨ ص ٢٩٩) ونكتفي منه بفقرات . قال بعد ما وصف فتحه لانطاكية :

(وسلامةُ النفس هي التي يفرح بها الحي اذا شاهد الأموات . ولعل الله إنما أخر أجلك لتستدرك بالطاعة لنا ما فات . ولما لم يسلم أحد من اهل انطاكية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يخبرك بما جرى لهم خبَّرناك . أو يبشرك بسلامة نفسك وهلاك حزبك بشَّرناك . فينبغي لك بعد الآن أن لا تكذّب لنا خبرا ولا تقل لما جرى كيف جرى) .

وللشيخ النووي شيخ دمشق حكاية مع الملك الظاهر نختم بهـا محاضرتنا ذلك ان الملك أراد أن يضع ضريبة لتسديد نفقات الحرب واستفتى الفقهاء فأفتوه بما أراد ماعدا الشيخ النووي قائلاً : الضرائب انما تفرض عند الحاجة ولا تتحقق هذه الحاجة الا بعد ان يباع ما في القصر السلطاني من المماليك والأواني وحليّ الذهب والفضة التي هي كلها من مال بيت المسلمين وبعد ذلك للملك ان يضع ضريبة حرب . فسكت الملك مغضباً .

هذا أيها الملك الجليل والجار العظيم ما طالته يدنا من أخبارك . واستطعنا ان نجمعه من جليل آثارك . فإذا كان هناك أشياء من مناقبك لم تطل يدنا اليها . أو لم يتسع الوقت للإتيان عليها . فاعذرنا إذن وارجع الى الرمس . قرير العين مطمئن النفس والسلام .

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net